سيدة الموسم

ذلك اسم رواية عرضت فى سينما بالقاهرة ، وددت لو شاهدتها كل سيدة وكل فتاة ، ولا سيما أولئك اللواتى يسمون " المرأة الجديدة " أو " الفتاة المودرن " أولئك اللائى يردن أن يتكرن جنسهن وغرائزهن ووظيفتهن الطبيعية فى الحياة !

نعم ووددت لو شاهدتها فتيات الجامعة ، وفتيات المدارس الثانوية ، وفتيات "الميردى ديبه " وما إليها . ومنهن من يتحدثن عن " المطبخ " كما يتحدثن عن إحدى الخرافات الزائلة ، ويتنصلن من معرفة شؤونه كما يتنصلن من أمر مزر بالكرامة !

و " سيدة الموسم " امرأة عصرية مثقفة إلى أبعد حدود الثقافة ، تشتغل بالمسائل العامة ، وتحضر الحفلات ، وتشترك فى المشاكل الدولية ، وتتدخل بالطيارة ، وتتصل بقادة الشعوب ، ونلتفت إليها الأنظار ، ويتوجه إليها الاهتمام ، وتهدى إليها الياشين ... ... إلى آخر ما تستطيع امرأة أن تظفر فى المجتمع وأن تنجح فى هذا الظهور .

ولكن المرأة امرأة على أية حال ، فهى تأوى إلى رجل تتخذه زوجا ، إلا أنها لا تجد من وقتها ولا من اهتمامها ما تمنحه لهذا الزوج ، وحتى ليلة الزفاف تزدحم الدار برجال المجتمع والسياسة ، والرجل رجل على كل حال ، فهو لا يطيق هذه الحياة ، ولا يحس بقيمة الزواج ، أولى له أن ينصرف عنها وأن يعتزل حياتها العامة وينفرد كما كان يعيش قبل هذا الزواج الاسمى السخيف ! .

وحين تستيقظ شخصية المرأة فى نفس " سيدة الموسم " تسرع وراء زوجها ، تبحث عنه ، وتحاول أن تكون امرأته ، وأن تسترده من عزلته ، وتهم أن تقوم له ببسط وظائف المرأة ، وأن تهيىء له فطورا ، فتصيبها " اللخمة " لأنها إنما نجحت فى المجتمع على حساب وظائفها ، فتبكى وتدرك يومئذ صحة ما قاله رجلها وهو " أن سيدة المجتمع ليست امرأة " .

تلك هى القصة ، وهى قصة كل امرأة تفسد فطرتها ، فتستصغر "مملكة البيت" وتحتقرها ، وتحسب أن "مملكة الطريق" أعظم وأشرف منها . تلك التى تجتذبها أنوار الطريق فتعشى عينيها وتنسيها ما فى حياة البيت من هدوء وجمال وسعادة . تلك التى تحسب البيت سجنا يفرضه الرجل عليها ، وتظن القيام بوظيفتها فيه تسخيرا واستبدادا لا تخضع لها المرأة المثقفة . تلك التى تضل عن ميولها الطبيعية وتكفر بحكمة الطبيعة فى خلق الذكر والأنثى !

للمرأة أن تتعلم ، وللمرأة أن تشعر بكرامتها ، وللمرأة أن تستمسك بحقوقها ، ولكن عليها أن تذكر مع هذا كله أنها "امرأة" وليست رجلا ، وأن المجتمع لا يغنيها ولا يسلبها حقها ،

حين يمنحها مملكة البيت ، ويمنح الرجل مملكة الطريق ، وأن وظيفتها فى تكوين الأسرة وامتداد الحياة ليست بأقل من وظيفة الرجل ، وأنها لا تستطيع أن تكون أما وعاملة فى الميدان العام ، لأن الرجل لا يستطيع ذلك أيضا !

كلا ليس المجتمع ظالما للمرأة حين يشرط بها امتداد الحياة ، ورعاية الجيل الناشئ ، وصياغة آباء المستقبل وأمهاته ، ولن تشعر امرأة بحقارة هذا العمل العظيم إلا إذا فسدت فطرتها وشوهت غريزتها ، وفقدت كنز الأنوثة الثمين الذى أودعه الحياء قلبها الحنون !

من الذى يقول : إن المرأة الكادحة فى العمل المجاهدة فى المجتمع أوفر حظا وأكبر سعادة من تلك السيدة الخالدة إلى بيتها ، تنفث فيه السحر والإشراق ، وتشيع فيه البهجة والسعادة ، وتستمتع فيه بالثقة والاطمئنان وترى كيف تصنع على عينها زهراته الصغيرة من بنين و بنات ، وكيف تؤثر بشخصيتها فى الصغار والكبار !

إننى لأرثى للمرأة التى تقسو عليها الحياة فتخرجها إلى الطريق العام ، ولكننى لا أتصور كيف تختار امرأة لنفسها هذا المصير التعيس إذا كانت تملك سواه ؟ وكيف تحصل على زوج ثم تبقى فى الطريق العام ؟ كذلك تزاول العمل متى كان دخل زوجها يضمن لها الحياة ؟

إنها امرأة منكودة الحظ ولا شك تلك التى توازن بين الحياتين فتختار الثانية على الأولى — إذا كانت تملك الاختيار — و إن زوجها لأحمق إذا كان يجد الكفاية ثم يدع لها أن تزاول هذا العناء .

يا لبؤس الحياة ويا لسوء النظام الاجتماعى الذى يقذف بكلا الزوجين إلى الطريق !

إن كلا منهما لمخدوع إذن عن حقيقة نفسه ونوازع فطرته واتجاه غريزته ، إنهما لمصابان بدوار أو خمار اسمه "المجتمع الحديث" وهو نزعة من نزعات الشذوذ والانحلال .

وإنه لمن حسن الحظ أن يكون المجتمع المصرى نادر الإصابة بهذه اللعنة الوافدة ، ولكنه مع الأسف مصاب بتمرد معظم الفتيات المتعلمات على الشؤون المنزلية ، لأنها فى نظرهن دليل التأخر والجهل والجمود . تلك كارثة اجتماعية ولا شك ، يجب العمل الحازم الحاسم لمقاومتها فى عقول الفتيات ، و إذا لم تعالج انقلبت مقدمات أزمة الزواج التى نحسها إلى أزمة حقيقية ، لأن معظم الشبان لا يملكون أن يكون فى بيوتهم طه وعدد من الخدم ، ولا يرون معنى لتناول الطعام فى المطاعم بعد الزواج !

وهناك علاقة وثيقة بين دراية الفتاة بالتدبير المنزلى وبين الاقدام أو الإحجام عن الزواج ، وقد ذكرت كاتبة انجليزية أن الاقبال على الزواج فى انجلترا قد تضاعف فى السنوات الأخيرة بسبب اقبال الفتيات الانجليزيات على إتقان فن المعيشة والاستغناء عن الخدم ، وعلى إثر عناية المدارس الانجليزية بجعل التدبير المنزلى فكرة أساسية فى برامجها .

وعلى ذكر المدرسة الانجليزية نذكر أن برامج مدارس البنات عندنا تحوى مادة "التدبير المنزلى" ولكنها "رسميات" لا أثر لها ولا نتيجة ! إنها حصة من الحصص النظرية على الأكثر لأن معلمة التدبير المنزلى نفسها قلما تعرف شيئا عمليا عن هذا التدبير ! وأين تعرفه وهى مشغولة بالمدرسة منذ أن كانت طفلة إلى أن صارت معلمة ! إن معلوماتها عن هذا الموضوع مستقاة من الكتب أما المراقبة العملية فليست لها خبرة بها . وليس المهم — مع هذا — أن تدرس التلميذة حصة عن "التدبير المنزلى" ولكن المهم أن تكون لها روح وميول منزلية ، أى أن تعتاد الحياة البيتية وتشعر بمزاياها وتشترك فى تدبيرها ، وهذا لا يتأتى إلا إذا تغير نظام مدارس البنات التى تعدّ تلميذاتها لحياة البيوت ، كمدارس الثقافة النسوية والتربية النسوية ، بحيث تصير الحياة فى هذه المدارس أقرب إلى الحياة فى البيوت ، وتتولى المعلمات والتلميذات العمل فيها كما لو كن فى أسرة ومنزل ، أما الدروس العلمية النظرية فتكون فى فترات الفراغ من شؤون الدار !

إن تربية الجيل هى أعظم الوظائف وأخطرها ، فيجب أن ينال التعليم النسوى عندنا ما تستحقه هذه الوظيفة من الاهتمام ، ويجب أن يعدل تعليم البنات تعديلا أساسيا ، فمجرد وجود حصة للتدبير المنزلى على الطريقة النظرية المتبعة الآن لا يؤثر أثرا محسوسا ، وإن جو المدرسة المصرية ليبعد الحياة البيتية كل البعد عن نفس الفتاة وعقلها ، ويحيلها رجلا مشوها لا هو رجل ولا هو امرأة ، ويدعها تصطدم بعد ذلك فى حياتها المنزلية بما اصطدمت به "سيدة الموسم" بعد فوات الأوان !

وإنه لمن العجيب أن تحرص إنجلترا فى العصر الحديث على تكوين البنات للحياة المنزلية ، وأن تقبل الفتاة الانجليزية على اتقان فن المعيشة . بينما نحن حضراتنا — نوحد برامج الجنسين ونهمل فن المعيشة ، ونتشدق بضرورة اتحاد المرأة والرجل فى طريقة التعليم ! إننا نقلد فرنسا — ولا تتخذ عظة من انهيارها السريع — ونقلد الحياة المزيفة التى تعرضها علينا هوليوود فى رواياتها السينمائية ، ونفهم أنها هى الحياة الحديثة فى الأمم المتحضرة ، فيأخذ أبصارنا هذا البريق الجاذع المكذوب . ولدينا أصابع تحمل أقلاما رقيعة ، أو عابثة ، أو حمقاء ، تتخذ من القضايا المنطقية دليلا على مساواة الجنسين ، دون نظر إلى وظائف الطبيعة ، وحاجات المجتمع ، وقوانين الاقتصاد فى كل بيئة من البيئات .

ولو أفقنا قليلا من هذا الدوار ، وتفتحت أبصارنا على الكارثة التى تنهال لها ببروز المرأة المصرية إلى الحياة الخارجية ، لتركنا هذا الضجيج العابث الأحمق إلى حين .

إن أول ما ينتظرنا من هذه الكارثة هو مزاحمة المرأة للرجل فى المجال الذى يضيق بالرجال وحدهم وتفاقم مشكلة العطل نظرا لهذه المزاحمة . وليست المسألة مسألة سباق بين

الرجل والمرأة ، ولكنها مسألة تعاون على بناء مجتمع سليم . ولو كانت حركة العمل و لإنتاج فى حاجة إلى إخراج المرأة من البيت إلى الطريق لحنت الكارثة ، ولكن المجال ضيق ، وكل امرأة تعمل يقابلها رجل يتعطل ، وكل رجل يتعطل يقابله بيت يتهدم وأسرة تتحطم ، أو تقابله فتاة لا تجد الزوج الذى يؤسس أسرة لعجزه عن الإنفاق .

والعلاج المنطقى — على حسب هذا الوضع — أن تعمل المرأة و يتعطل الرجل ، وأن تبحث الفتاة العاملة عن شاب متعطل تتزوجه و تنفق عليه وتكون معه أسرة فى بناء المجتمع ! وهو منطق مضحك ظاهر السخف ، ولكنه منطق الواقع على هذا الأساس .

ثم الكارثة الثانية من اشتغال المرأة بالأعمال العامة وهى أن تتلقى جيلا من صنع الخدم فالأم المشغولة بعمل عام لن تجد من الوقت ولا من الجهد ما تربى به أطفالها ، وستضطر حينئذ أن تستعين بأيدى الخدم فى تربيتهم ، وسيكون لنا جيل حديث من صنع هذه الأيدى غير المأ ونة وغير المهذبة وغير الخبيرة بذلك الواجب العظيم .

و إنها لكارثة ولا شك أن يصير تعليم المرأة بالجيل الناشئ إلى هذا المصير ، فالأم الجاهلة خير من الخادمة الجاهلة على أية حال ، وطفل ينشأ فى حضن هذه الأم خير ألف مرة من طفل ينشأ فى حضن هذه الخادمة من جميع الوجوه .

ثم الكارثة الثالثة — من وراء اشتغال المرأة بالحياة العامة — وهى انهيار الحياة الزوجية أساس النظام الاجتماعى الشريف . فعلام يتزوج الرجل إذا كانت حياته بعد الزواج كحياته قبلها ، و إذا كان سيتناول طعامه من المطاعم أو من أيدى الخدم و إذا كان الجو المنزلى سيبقى خاويا كاسفا من المرأة الخاصة التى تنعشه ؟

أغلب الظن أنه سيستعيض عن الزواج المقيد بالصداقة المطلقة — وهو ما حدث لفرنسا قبل انهيارها — وسيعمر النادى والطريق على حساب الأسرة والبيت ، وستنحل العقدة المقدسة التى تدعو إليها حاجة الأليف للأليف .

إننا نقامر بأجمل ما خلقته لنا الطبيعة ، ونغامر فى سباق خاسر مع عوامل الهدم والفناء. و إنها لفتنة لا ننتبه إلى عواقبها الأليمة ، ولا نريد أن نتعظ فيها بالأمم المنهارة ، ولا أن نقتدى بالشعوب السليمة إذا عز علينا أن نستمسك بتقاليد الشرق ووحى الأديان ، لأن الدين والتقاليد — فى عرفنا — تأخر وجمود .

و إن رواية " سيدة الموسم " لهى روايتنا نحن ، و إننا لأحوج أهل الأرض إلى استخلاص العبرة منها ووقف العجلة المندفعة إلى الهاوية ، ونحن فى خمار أو دوار .